التهميش الإعلامي للشباب الجزائري وأشكال الالتفاف عليه.

نصر الدين لعياضي

مقدمة

من الصعوبة بمكان البحث في موضوع قيام وسائل الإعلام الكلاسيكية الجزائرية، خاصة الرسمية، بتهميش (Marginalizer) الشباب الجزائري. والسبب في ذلك لا يعود لحداثته فحسب، بل أيضًا لما يثيره من قضايا وإشكاليات. ونرى هذه الصعوبة مرتبطةً بمفهوم التهميش الإعلامي الذي يبدو أكثر تعقيدًا من مفهوم التهميش ذاته الذي ما زال يثير الكثير من الجدل في الأوساط الأكاديمية حول الواقع الذي يغطيه ورهاناته. فانطلاقًا من هذا الواقع تحفظ الباحث الجزائري عبد القادر لكجع على توصيف ما يعيشه الشباب الجزائري بالتهميش في المطلق بعد أن قام ببحث ميداني قاده إلى الاستنتاج الذي مفاده أن مفهوم تهميش الشباب في السياق الجزائري يأخذ أبعادًا نسبية تختلف باختلاف طبيعة المؤسسات. لقد أكد أن الاختلاف في علاقة الشباب الجزائري بالدين والأسرة من جهة، والمؤسسات السياسية والجمعوية، من جهة أخرى، ليست مسألة كمية فقط[1]، لأنها تُثار، أيضًا، على الصعيد النوعي لارتباطها بحرص الشباب على تنمية علاقته بأسرته واحترامها، والتمسك بالدين أكثر من ارتباطها بالمؤسسات السياسية والجمعوية. فالأسرة والدين في نظر الباحث المذكور يعملان، أكثر، على دمج الشباب، بهذا القدر أو ذاك، في النظام الاجتماعي القائم. وتنبع الصعوبة المذكورة

(1) Lakjaa Abdelkader, La jeunesse algérienne entre valeurs communautaires et aspirations sociétaires, communication au Colloque International Pluridisciplinaire «Villes et région et marginalité chez les jeunes» tenu à **Skikda** les 21 et 22 Mai 2007 et organisé par l'Université Mentouri de Constantine, l'Université du 20 Août 1955 de **Skikda** et l'Université Paris X Nanterre, consultée le 30/06/2011 in **www.cdesoran.org/doc/Lakjaa3.pdf**

أعلاه، أيضًا، من محاولة التعاطي مع مفهوم الشباب كبناء اجتماعي تنتجه الخطابات الاجتماعية قبل أن يكون حقيقة إحصائية.

إشكالية البحث:

يمكن للباحث أن يكتشف بيسر شبه غياب الشباب في وسائل الإعلام الجزائرية، والرسمية على وجه الخصوص. فالمسؤولون الرسميون عن قطاع الإعلام في الجزائر ذاتهم يعترفون بهذا الأمر[1].

لكن ما هو غير يسير يكمن في الإجابة عن السؤال المرتبط بالصيغة التي يأخذها شبه الغياب هذا، وفي البحث عن العوامل التي أنتجته.

سيتطرق هذا البحث إلى التهميش الإعلامي للشباب الذي يعد من تجليات التهميش الاجتماعي. هذا مع الإشارة إلى أن دلالاته الرمزية تملك قيمة أكبر، وبعض رهاناته تظل متلبدة، وغير مرئية، ولا يمكن الاقتراب منها علميًّا إلَّا عبر تفكيك الأشكال السياسية والثقافية والإعلامية والفنية التي يتبناها الشباب للالتفاف عليه. فهل يشكل هذا الالتفاف قطيعة مع وسائل الإعلام الرسمية الكلاسيكية أم أنه يعبر عن رغبة في إعادة تشكيل فضاء إعلامي جديد يكون الشباب فيه قوة فاعلة؟

إن الأفق العلمي للبحث عن علاقة الشباب بوسائل الإعلام انطلاقًا من براديغم Paradigme التأثير قد استنفد، في تقديرنا، ولم يعد يملك ما يقدمه من قيمة علمية مضافة. وبالمقابل فإن رؤية العلاقة ذاتها من منظور البنائية الاجتماعية يسمح لنا بمعرفة كيف يفهم الشباب إقصاءه من وسائل الإعلام الرسمية؟ وكيف يستملك (s'approprier) الميديا الجديدة، للالتفاف على تهميشه إعلاميًّا؟

التهميش الاجتماعي: علامة أزمة أم مؤشر على التغيير؟

يتضمن التهميش الاجتماعي العديد من المعاني التي تحيلنا إلى «الإقصاء» أو الحرمان أو الاستبعاد، أو الشذوذ (Anomie). ويُعدّ ظاهرة موغلة في القدم تمس بعض الفئات الاجتماعية التي تتميز بسنها أو عرقها أو دينها أو جنسها أو مهنتها. لكن رغم هذا فإنه كمفهوم

(1) راجع خطاب وزير الإعلام الجزائري الذي ألقاه بولاية (محافظة) أدرار والمنشور بالصحف الوطنية. انظر:

L'Etat accorde un grand intérêt au développement à la promotion de l'information de proximité dans les régions sud, le quotidien **El Moudjahid**, Algérie, du 7 mars 2011.

لم يلج الدراسات الأكاديمية إلَّا في بداية الثمانينيات من القرن الماضي. ويميز التراث العلمي بين نوعين أساسيين من التهميش، وهما : التهميش السوسيو اقتصادي، والذي تعود جذوره إلى بنيات الإنتاج، والتنظيم الاقتصادي للمجتمع، ويمس الفئات الاجتماعية المستبعدة من فوائد النشاط الاقتصادي ومزاياه. والتهميش السوسيو ثقافي الذي يراه في الرفض الإرادي والضمني للاندماج في المجتمع، ويفرز شكلًا من الثقافة الفرعية، التي تختلف أو تتعارض، بهذا القدر أو ذاك، مع الثقافة المهيمنة(1). هذا مع العلم أن الكثير من الباحثين يرفضون هذا التمييز.

نقصد بالتهميش الإعلامي للشباب عدم إتاحة الفرصة لهم ليتناولوا الكلمة أمام الملأ عبر وسائل الإعلام الرسمية ليعبروا عن ذاتهم ومشاكلهم وخصوصيتهم. ويقدموا وجهة نظرهم في المواضيع التي تهمهم أو ذات الصلة بالشأن العام. بمعنى أن وسائل الإعلام الرسمية لا تتعاطى مع الشباب كحقيقة سوسيولوجية، بل كخطاب إيديولوجي تسقط فيه جميع التمثلات الخاصة بالشباب الجزائري؛ أي الخطاب الذي يتحدث عن الشباب، أو يخاطب الشباب انطلاقًا من الصورة التي يجب أن يكونوا عليها سواء استمدت هذه الصورة من الماضي؛ أي من بطولة الشباب الفعلية أو المتخيلة وتضحياته من أجل نيل استقلال الجزائر، أو من الصورة المثالية التي يرسمها الخطاب السياسي للواقع الحالي الذي يعيشه الشباب.

للاقتراب أكثر من واقع الشباب في الجزائر يمكن الإشارة باقتضاب إلى العناصر التالية :

1- بلغ عدد الشباب الجزائري الذين يقل سنهم عن 30 سنة 58% من مجمل 61.30 مليون نسمة الذين يشكلون المجتمع الجزائري، حسب نشرة الديوان الوطني للإحصائيات الصادرة بتأريخ أول يناير/ كانون الثاني 2011. ورغم ما بذلته السلطات العمومية للتخفيف

(1) Guy Rocher: La marginalité sociale, Un nouveau réservoir de contestation ,in Claude Ryan (sous la direction), Le Québec qui se fait, Montréal: Les éditions Hurtubise HMH ltée, 1971, consulte le 7/7/2011 in

http://classiques.uqac.ca/contemporains/rocher_guy/marginalite_sociale/marginalite_sociale.htm

(2) Conseil National Economique et Social: Rapport National sur le développement humain, Réalisé en coopération avec le Programme des Nations Unies pour le développement, Alger 2008

هذا مع العلم أن النسبة المذكورة من البطالة لا تحظى بإجماع المختصين، وتتعارض مع الإحصائيات التي تنشرها بعض المنظمات الدولية، فحسب تقرير المعرفة العربي، الذي أعده برنامج الأمم المتحدة الإنمائي للعام 2009 فإن نسبة البطالة في الجزائر بلغت 42% في العام 2005-2006، وكان نصيب الشباب منها 70%.

من وطأة البطالة التي يعاني منها الشباب إلا أنها تظل في حدود 11% بعد أن كانت تقدر بـ 29% في2000[1].

2- استفحال أزمة السكن وتزايد البطالة في المجتمع الجزائري كانتا من بين العوامل الأساسية التي غيرت مفهوم العائلة. فالعائلة التقليدية في الجزائر التي كانت تعني عيش عدة أجيال فوق سقف واحد قد ضمرت أو في طور الضمور أمام تزايد طموح الشباب في بناء أسرة مستقلة تتماهى مع نمط الحياة الغربية[2].

3- رافق الانفتاح الاقتصادي في الجزائر بروز قيم «جديدة» في المجتمع نذكر منها الجشع، والأنانية المفرطة، والنهم في الكسب السريع حتى وإن كان غير مشروع، والاستماتة في تحقيق المآرب الشخصية، والدفاع عن المصالح الفردية حتى وإن كانت ضد المصلحة العامة. وتدني النظرة للتعليم، فالدراسة لم تعد وسيلة للرقي الاجتماعي. والمُثُل العليا التي كانت تقود جيل السبعينيات من القرن الماضي وما قبله لم تعد صالحة لجيل الثمانينيات من القرن الماضي وما بعده.

4- لقد بدأت الدولة الوطنية تفقد، تدريجيًّا، قاعدتها الاجتماعية الجماهيرية التي اكتسبتها بعد الاستقلال مباشرة، بل بدأت مظاهر الانفصام بين المواطنين والدولة تتأكد مع مرور الزمن. وتآكلت معها كل أشكال الوساطة مع المواطنين. فغياب الوساطة لا يعني غياب الحوار والنقاش حول الشأن العام الذي يميز «الفضاء العمومي» وفق المفهوم الهبرماسي (نسبة إلى الفيلسوف يورغن هبرماس) فحسب، بل يعني، أيضًا، وقوف المجتمع في مواجهة الدولة.

5- استشرى العنف في الحياة العامة إلى درجة أنه أصبح وسيلة الاتصال الوحيدة التي يملكها الجزائري لإسماع صوته، وحل بعض المشاكل التي يعانى منها[3]. والخشية أن يتحول هذا العنف إلى «ثقافة» تتحكم في السلوك اليومي.

---

(1) Lahouari Addi: Problématique de la société civile en Algérie :Quelques éléments théoriques et historiques, Communication à l'occasion de l'Université d'été du CNES qui s'est déroulée du 1 au 3 septembre 2007; consulté 8/7/2010 in **http://journal3.net/spip.php/IMG/local/cache-vignettes/ecrire/spip.php?page=foros-articulo&id_article=395**.

(2) أكد المدير العام للأمن الوطني الجزائري أن إداراته تدخلت لاسترجاع الأمن والحفاظ على الاستقرار في ربوع الوطن 9009 مرة خلال سنة (من يونيو2010 إلى يونيو 2011)، نقلًا عن صحيفة «**الوطن الجزائرية**» الصادرة يوم 11.07.13

6- اتسعت ظاهرة الهجرة غير الشرعية نحو أوروبا فشملت شرائح واسعة من الشباب طارحة بذلك مفارقة صارخة نلخصها في القول إن جيل الستينيات والسبعينيات، الذي اضطر إلى الهجرة إلى فرنسا لضمان قوته وقوة أسرته، كان يصر على العودة إلى الجزائر لبناء مستقبله. بينما يفكر جيل الشباب الحالي في بناء مستقبله بعيدًا عن بلده[1].

7- جرت التحولات الاقتصادية والاجتماعية في الجزائر في ظل انفتاح إعلامي وثقافي غير مسبوق بفضل البث التلفزيوني المباشر الذي سمح للجزائريين بالاطلاع على أنماط معيشية، وثقافات مختلفة وحتى متعارضة، فعزز تمزق النسيج الثقافي معلنًا عن مزيد من التوتر بين المرجعيات الثقافية المتباينة.

أخيرًا، يمكن القول إن مشاكل الشباب في الجزائر لا يمكن اختصارها في الحيف الاجتماعي، رغم خطورته والتي تعبر عنها قلة فرص العمل، وصعوبات الزواج لاستفحال أزمة السكن، وتوتر العلاقات الاجتماعية في ظل مرجعيات ثقافية وقيمية جديدة وبروز علاقات جديدة مع المجتمع والسياسة. إنها العلاقة القائمة على فقدان الأمل، والحيرة من الغد، وضياع معالم الماضي ورموزه.

أشكال التهميش الإعلامي للشباب الجزائري وخلفيته واستراتجيته.

يتصور الشباب الجزائري التهميش الإعلامي الذي يعانون منه كتعبيرعن عدم الاعتراف بهم، والتعامل معهم ليس بما هم عليه، بل بما توحي به الإسقاطات الإيديولوجية والاستغلال السياسي لمفهوم الشباب.هذه الإسقاطات التي تجنح نحو تعظيم الشباب عبر المغالاة في مدحهم، واعتبارهم مناضلين سياسيين وخير خلف للجيل الذي ضحى وكافح من أجل تحقيق الاستقلال السياسي للبلاد، أو تميل لقدحهم باعتبارهم معاديين للتقاليد وخارجين عن أعراف المجتمع، أو رميهم بالطيش وقلة النضج الاجتماعي. ولا يمكن أن نخفي مساهمة وسائل الإعلام في إنتاج بعض هذه الإسقاطات لكونها منتجة للتمثّلات الاجتماعية.

يشكل التلفزيون وسيلة الترفيه المركزية بالنسبة للشباب الجزائري، إذ يحتل المرتبة الثانية أو الثالثة في قائمة مواد تسليتهم[2] فبعض الدراسات[3] تشير إلى أن 5.76% من

(1) Nelle Marie: Harraga, la jeunesse désenchantée d'Algérie, le quotidien **Le monde**, France, . 07.04.09

(2) Lakjaa Abdelkader, op. cité.

(3) **Le Quotidien d'Oran**, quotidien d'information nationale du 12/07/2007; op. cité.

الفتيات يعتبرن أن التلفزيون الوسيلة الأكثر تأثيرًا على حياتهن، مقارنة بالكتب 5.18%، والمجلات 5%. وهم أكثر انجذابًا لبرامج الفضائيات الفرنسية والعربية.

لكن ماذا عن التلفزيون الجزائري ومساهماته في تعزيز الروابط الاجتماعية لدى الشباب الجزائري؟

انطلقنا في هذا البحث من الافتراض التالي: «لم تحدث سنوات استقلال الجزائر التي تقارب الخمسين تغييرًا جذريًّا في الخطاب الإعلامي والثقافي بصفة عامة، والمتعلق بالشباب خاصة. فجوهر هذا الخطاب ظل ذاته رغم التغيير في البنية الاقتصادية للبلد، ورغم الانتفاضة الجماهيرية التي اجتاحت مختلف التراب الجزائري قبل مظاهرات 5 أكتوبر/تشرين الأول 1988 الدامية التي مازال تأثيرها حيًّا رغم الدمار والحريق الذي خرب البنية القاعدية للاقتصاد الوطني، والآلاف من القتلى المفقودين والمشردين واليتامى والأرامل، ورغم وجود أحزاب في السلطة. هذا إذا استثنينا السنتين 1989-1990 التي عرفت انتعاشًا في الحياة السياسية والحوار الاجتماعي الذي أجبر التلفزيون الجزائري على مجاراته، وإظهاره.

لقد كانت البرامج التي بثها التلفزيون والإذاعة الجزائرية، منذ الاستقلال إلى غاية 1988، وفية لمتطلبات الإعلام التجنيدي والتعبوي الموجه لمختلف فئات المجتمع، مثل البرامج التلفزيونية التالية: «منبر العمال»، و«الثورة والفلاح»، و«الشباب والثورة»، و«نحن طلاب الجزائر»[1]. فلم تنظر هذه البرامج إلى هذه الفئات الاجتماعية في حياتها اليومية إلّا من منظور التزامها بالتوجه السياسي للبلد، واستعدادها للتضحية في سبيل تجسيده.

بجانب البرامج النضالية بث التلفزيون الجزائري برامج تعليمية وتربوية، منها تلك الموجهة لطلاب الثانوية، والتي تُعدّ امتدادًا لبرامج التعليم عن بعد. ويعتبر البرنامج التلفزيوني المسمى: «ما بين الثانويات» الأنموذج الأبرز لها. ويقوم على فكرة التنافس بين تلاميذ ثانويتين حول مستوى التحصيل الدراسي، ومتانة الثقافة العامة. ويرفق بنشاط ثقافي وفني: أناشيد، ومسرحيات، وفنون تشكيلية. لقد عمل هذا البرنامج على إعادة إنتاج المعرفة المدرسية بكل تمثّلاتها للمجتمع، والتاريخ، والعلوم. واستبعد كل إبداع خارج إعادة إنتاج الخطاب الرسمي الذي يتغذى من

(1) لأخذ فكرة عن هذا البرنامج تكفي الإشارة إلى أنه استعان بالنشيد الوطني للطلاب الجزائريين في التايتل (الجنريك) الذي يعلن عن بداية بثه. ويقول مطلع هذا النشيد:

نحن طلاب الجزائر نحن للمجد بناة نحن آمال الجزائر في الليالي الحالكات
كم غرقنا في دماها... واحترقنا في حماها... وعبقنا في سماها بعبير المهجات

الشعارات أكثر من التصاقه بالواقع؛ أي إنه يتغنى باختيار السلطات السياسية في مجال التنمية. وينظر إلى الشباب بصفة عامة، وطلاب الثانويات بصفة خاصة، كما يصورهم الخطاب السياسي: واعين، مناضلين، متنكرين لذاتهم لصالح المجتمع، وليس كما هم في الحياة اليومية بإنجازاتهم وانكساراتهم، بمشاكلهم وطموحاتهم. لذا فالكثير من الشباب لا يرون ذاتهم في هذا البرنامج الذي انزاح عن هدفه ليصبح عبارة عن حلبة للتنافس بين الولايات (المحافظات) التي تنتمي إليها المدارس أكثر من تنافس التلاميذ ذاتهم. وقد تم إحياء هذا البرامج في بعض ولايات الجزائر بفضل شبكة الإذاعات المحلية منذ 2007. ولا شك أن هذا البرنامج يختلف كليًّا على الصعيد الفلسفي والفني عن البرامج الإذاعية التي ينجزها التلاميذ في الدول الغربية تحت إشراف أساتذتهم وتبث في الإذاعات المحلية، وتخصص لموضوع معين، مثل الموسيقى، الشعر، الكتاب.....

وكان التلفزيون الجزائري يبث برنامج «ألحان وشباب» في نهاية السبعينيات من القرن الماضي. وهو عبارة عن مسابقة لعرض المواهب في الغناء، وقد تخرج منه عدد من المغنين الذين شقوا طريقهم في عالم الفن. وقد انتقد هذا البرنامج لطابعه الامتثالي في مجال الموسيقى والغناء، حيث كان يستبعد الأغاني التي كانت تعبر عن أسلوب الشباب في الموسيقى والطرب، مثل أغاني الرأي، ويجنح، كثيرًا، نحو تقليد رواد الأغنية الشرقية[1].

لقد أعاد التلفزيون الجزائري في صيف 2007 بعث الحياة في برنامج «ألحان وشباب» في إطار محاكاته لبرامج تلفزيون الواقع التي اكتسحت العديد من القنوات التلفزيونية العربية، مثل: البرنامجين التلفزيونيين «ستار أكاديمي»، و«سوبر ستار». وقد كشفت الحلقات الأولى من هذا البرنامج أن جنوح الشباب الجزائري إلى الهجرة غير

(1) يلح الكثير من الكتاب باللغة الفرنسية على هذه الفكرة، ويؤكدون عليها إلى درجة التجني على الواقع، مثل القول بأنه كان يمنع منعًا باتًّا على المتسابقين الغناء باللهجة المحلية أو كتابة نصوص الأغاني بلغة غير الفصحى. إن كثرة هذا الإلحاح تدعو إلى التساؤل عن النوايا غير العلمية التي تحرك هؤلاء الكتاب إلى درجة عدم الانتباه إلى أن النخبة من الفنانين الذين تخرجوا من مدرسة ألحان وشباب كانوا وما زالوا يغنون باللهجة المحلية مثل: يوسف بوخنتاش، ونادية بن يوسف التي اشتهرت بالأغاني الشعبية. نعتقد أن الطاقم الذي كان يشرف على البرنامج المذكور كان منفصلًا عن أسلوب الشباب وهوايته الغنائية. للاطلاع على نموذج من الذين ساهموا في هذا التكرار. انظر:

Leila Tounsi: Aspects des parlers jeunes en Algérie, **Langue française.** N.114, 1997. pp. 104-113.

الشرعية إلى اتجاه الغرب سبقه هروب رمزي من انتمائه، حيث لاحظنا أن قسمًا كبيرًا من المشاركين فضل الغناء باللغة الفرنسية والإنجليزية، وحتى بالهندية والروسية![1].

ومن البرامج الأساسية الموجهة للشباب في السنوات القليلة الماضية، يمكن الإشارة إلى برنامجين، وهما: «جيل الشباب»، و«قصر الأبطال». والفكرة الأساسية للبرنامج الأول مقتبسة من برامج تلفزيون الواقع، مثل البرنامج التلفزيوني المسمى «Arab's Got Talent»: الذي تبثه القناة التلفزيونية «أم بي سي 4» وهو عبارة عن مسابقة بين المواهب في جميع أنواع الفنون للحصول على جائزة. ويكمن الاختلاف بين البرنامجين أن البرنامج الجزائري شامل، ويضم مختلف اختراعات وإبداعات من يرغب في المشاركة بدون تنافس، ويخلو من لجنة التحكيم والجوائز.

إن غاية هذا البرنامج سياسية، إذ يهدف إلى تقديم صورة إيجابية عن الشباب: شباب غير عادي، استثنائي، استطاع أن يبدع، ويخترع بعيدًا عن الأسرة والمؤسسات الاجتماعية. فليس المجتمع هو الذي منحه الفرصة أو الظروف للإبداع، بل هو الذي اجتهد وثابر لبلوغ هدفه. ولعل هذا البرنامج يعمل على تفنيد الفكرة الراسخة في المجتمع الجزائري والتي مفادها أن التفوق والنجاح يعني استغلال النفوذ السياسي، ونهب الممتلكات العامة، والتلاعب بالقوانين للاستنفاع الشخصي، وغيرها. كما ينفخ هذا البرنامج في الفكرة، التي يمكن أن تكون صحيحة، ومفادها أن النجاح هو نجاح إرادة فرد بمنأى عن أي مؤسسة. فهذا البرنامج لا يعمل على نقل واقع الشباب بقدر ما يروّج خطابًا عن الشباب.

أما البرنامج التلفزيوني الثاني والمسمى «قصر الأبطال» فهو نسخة من البرنامج التلفزيوني الفرنسي المسمى «Fort boyard» الذي باع عددًا من نسخه إلى العديد من الدول منها الجزائر التي اشترت نسخة منه في 2006. والبرنامج يزاوج بين الجهدين: البدني والفكري. وهو بهذا لا يقدم قيمة مضافة للشباب الجزائري مقارنة بطبعته الفرنسية التي دأب الجزائريون على متابعتها عبر القناة الثانية من التلفزيون الفرنسي، منذ انطلاقته في يونيو/حزيران 1990. وهكذا يمكن إدراج هذا البرنامج ضمن البرامج التلفزيونية الأجنبية التي بلغت 56% من خارطة البرامج لسنة 1993-1994[2].

على ذكر البرامج الأجنبية يمكن الإشارة إلى انفراد تجربة التلفزيون الجزائري عن بقية

(1) نصر الدين لعياضي: **مقدمة في نقد التلفزيون**، الآفاق المشرقة ناشرون، الأردن، 2010، ص 58.

(2) Mostefaoui Belkacem: évolution de la grille de la télévision algérienne de 1978 à 1994, Aspects d'une politique de programmation en crise, Revue **Tiers-Monde**, France,. 1996, tome 37 nº146. pp. 305-314.

القنوات التلفزيونية العربية. فمسؤولو التلفزيون الجزائري يتوجهون إلى فرنسا لشراء كل البرامج الأجنبية باستثناء العربية منها. وهذا ما يفسر أن 40% من المواد التي بثها التلفزيون الجزائري ناطق باللغة الفرنسية، وتأخذ الأفلام والمسلسلات الأميركية نصيب الأسد منها[1]. ومن يتابع برامج التلفزيون الجزائري يتأكد بأنه لم يتخل عن هذا التقليد الذي يعمل على استبعاد شريحة واسعة من الجمهور من برامجه، بما فيهم الشباب الذين لا يتقنون اللغة الفرنسية، وذلك لأن نظام التعليم ما قبل الجامعي في الجزائر قد عُرِّب منذ عقود خلت.

إن البرامج الدرامية التي ينتجها التلفزيون الجزائري لا تتوجه بشكل مخصوص إلى الشباب، لكن هذا الأخير يشكل جزءًا أساسيًّا من جمهورها. ولعل «كوميديا الموقف» Sitcom المسماة «عمارة الحاج لخضر» خير دليل على تمثّل الخطاب الرسمي للشباب. فاللباس التقليدي الجزائري لصاحب العمارة استخدم في هذه السلسلة لغاية واحدة وهي السخرية والتهكم. (كيف ننتظر من الشباب أن يحترم تقاليدنا وعاداتنا؟) وسلوك الشباب كان موضع شجب وتنديد بلغة مباشرة ودوغمائية ووعظية تقترب من الصور النمطية الرائجة لدى البعض: الكسل، والاتكال، والإهمال وعدم تحمل المسؤولية، وتتجسد عبر صور دالة عن تسيب الموظفين الإداريين عن أداء مهامهم، وتسلط الزوجة على الزوج، وغيرها من الظواهر التي يعاني منها المجتمع، والتي لا يمكن نفيها. لكن هذه السلسلة التلفزيونية تسلخ سلوك الشباب عن السياق الاجتماعي والثقافي والسياسي للبلاد، وتعفي المؤسسات الرسمية من كل مسؤولية عنه.

خلافًا للخطاب الدرامي الاتهامي والوعظي للشباب، يتجه الخطاب الإعلامي إلى اتخاذ موقف مختلف يشيد بالدولة الحاضرة في كل صغيرة وكبيرة، والساهرة ليلًا ونهارًا على أبناء المجتمع كلهم بدون استثناء، والتغني بالشباب بناة المستقبل.

فعلى الصعيد الكمي يبدو حضور الشباب في الأخبار التلفزيونية متواضعًا جدًّا، حيث تقدر نسبتهم بـ 16.66% من مجمل الأشخاص الذين تبرزهم نشرة الأخبار التلفزيونية. وهذه النسبة لا تتناسب مع عدد الشباب في المجتمع. هذا المجتمع الجزائري الذي يبدو في نشرة الأخبار التلفزيونية مجتمع البالغين، والكهول، والشيوخ، حيث بلغت نسبة حضورهم فيها 80.33%. وتتجلى أبعاد حضور الشباب في الإعلام التلفزيوني، أكثر، إذا أدركنا أنهم لا يتحدثون عن ذاتهم، وبلغتهم في نشرة الأخبار التلفزيونية، بل يتكلمون بلسان الخطاب الرسمي. بمعنى آخر لا يبدو الشباب في نشرة الأخبار التلفزيونية فاعلين، ومبادرين، بل متفاعلين مع الأحداث التي قام

(1) A. Michaud, **Études et documents**, Ambassade de France à Alger, 1988, cité par Mostefaoui Belkacem; Idib.

بها غيرهم. فبهذا يشكل الشباب رافدًا للخطاب الرسمي التلفزيوني، أو أنهم يعيرون صورتهم للتلفزيون ليستغلها من أجل إثبات مصداقية الأحداث التي يبثها. انظر الجدول رقم (1)[1].

الفئة	متوسط العدد	%	فاعل	%	متفاعل	%	توضيحي	%
الشباب	5	%16,66	0	%0	3	%10	2	%6,66
البالغين	25	%80,33	21	%60	3	%10	1	%3,33

جدول رقم 1 ـ حضور الشباب في نشرة أخبار التلفزيون الجزائري التي تبث زمن الذروة (الثامنة بعد الزوال)[2].

في الواقع، إن نشرة الأخبار التلفزيونية لا تطمس الشباب فقط، بل تطمس المجتمع بمختلف فئاته، ويصبح غير مرئي. فانشغال الأخبار في التلفزيون الجزائري يقتصر على إبراز الدولة برموزها وهيئاتها ومؤسساتها والمنظمات السياسية والمدنية المرتبطة بها. فهي التي تقوم بكل شيء: تعلِّم، وتربي، وتشغل، وتوجِّه، وتسوِّق، وتنظف، وتفكر، وتنظم، وتبني. أما دور بقية فئات المجتمع؛ أي الأشخاص المستقلين عن الدولة ومؤسساتها، فيقف عند التفاعل مع الخطاب الرسمي، والتأكيد على صوابه ودقته، أو الظهور كديكور لهذا الخطاب من أجل إعطائه مصداقيته، أو لمنح الأحداث التلفزيونية بعدًا توضيحيًّا.

تمثيل الفئات الاجتماعية في نشرة أخبار التلفزيون الجزائري التي تبث زمن الذروة

يؤكد الباحث الجزائري الهواري عدي بأن الشعبوية Populisme التي ميزت نظام الحكم في الجزائر منذ الاستقلال قد قضت على السياسة[3]، وذلك لأنها تنفي وجود صراع أو نزاع في المجتمع. وتظهر هذا الأخير منسجمًا وموحدًا في مواقفه وآرائه. فالشعبوية

(1) استلهم هذا الجدول من عمل الباحث Sébastien Rouquette، نقلًا Maxime Drouet وقد كيفناه لخصوصية بحثنا. انظر: Maxime Drouet: op cité

(2) اختار الباحث عينة عشوائية منتظمة من نشرات الأخبار المصورة المركزية التي بثها التلفزيون الجزائري في الساعة الثامنة بعد الزوال خلال الفترة الممتدة من 19 / 6 إلى 20/ 7 . عمل فيها الباحث على تشكيل أسبوع اصطناعي بحيث يضمن ظهور مختلف أيام الأسبوع في العينة المدروسة.

(3) Lahouari Addi: **Populisme, néo-patrimonialisme et démocratie en Algérie**, In R. Gallisot, Populismes du Tiers Monde, l'Harmattan, France, 1997, PP(215-22)

تفترض أن وحدة الجماعة السياسية، ومن ورائها الشعب الجزائري، هي معطى بنائي لمفهوم الدولة. وإن ظهرت بعض الاضطرابات أو النزاعات في المجتمع بين الحين والآخر فهي صنيعة أيادٍ أجنبية، وقوى حاقدة على البلد وشعبه. ويمكن القول إن الشعبوية لم تقتل السياسية فقط، بل قتلت الإعلام أيضًا. فالإعلام الحكومي، والتلفزيوني تحديدًا، يؤكد أن الأوضاع في الجزائر عادية، والأمور تسير على أحسن ما يرام ـ إذا أين يكمن الإعلام في قول إن الأمور عادية ـ ويستبعد كل من يقول عكس ذلك حتى وإن كان حزبًا سياسيًّا معترفًا به، ويملك تمثيلًا في المجلس النيابي.

ويستعرض التلفزيون الجزائري نشاط الأحزاب السياسية الشرعية في نشرة أخباره في حدود ما تسمح به الديمقراطية الشكلية في بعض الأحيان، فيبث بعض الصور للأحزاب التي تتدثر بالخطاب الرسمي، وإذا لم يتم العثور على ما يؤيد هذا الخطاب في نشاط الأحزاب تدفن الصور وسط ركام الجمل التي لا تملك أي وظيفة سوى الحشو. وبهذا يصبح الإعلام الحكومي شكلًا من أشكال العلاقات العامة التي تسعى الدولة من خلاله إلى تجميل صورتها لدى الشعب، متغافلة عن حقيقة أساسية وهي أن مصدر صورة الدولة لدى المواطنين لم يعد حكرًا على وسائل الإعلام الحكومية، بل هو نتيجة لما يتلقاه المشاهد الجزائري من صور من وسائل الإعلام العربية والأجنبية، خاصة الفضائيات، ومواقع الإنترنت وشبكاتها الاجتماعية. وما يصلهم، بشكل عرضي، من تقاطع المعلومات والأخبار ذات المصادر المتنوعة. وهكذا يظل تصور السلطة الحاكمة في الجزائر للتلفزيون أسير فلسفة الماضي التي تؤمن بأن التلفزيون هو رمز للسيادة الوطنية ويشكل سلطة تعمل على توحيد الأفكار والقناعات، ويهيكل رؤية المجتمع لذاته وللعالم.

إذن الإصرار على قتل الإعلام لا يتطلب من الشعبوية دفع وسائل الإعلام الرسمية للتنكر لوجهات النظر المغايرة أو المختلفة فقط، بل يفرض عليها، أيضًا، التنكر للواقع أو تزييفه من خلال استحداث واقع «افتراضي». هذا ما يؤكده أحد الصحافيين الجزائريين، بمرارة، قائلًا: (لا توجد عزلة أشد من تلك التي يشعر بها الجزائري وهو يشاهد نشرة الأخبار في قناته التلفزيونية اليتيمة، حيث يظل لمدة نصف ساعة منفصلًا عن الواقع باسم الدولة التي تتواصل مع ذاتها. الدولة التي تتحدث عنه في نشرتها الإخبارية، وباسمه، بدون أن يكون له الحق في التدخل أو الحديث. ينظر إلى بلد يسكنه دون أن يجد ذاته فيه، ويسمع كلامه الذي لم يقله)[1].

(1) Kamel Daoud :La solitude de l'algérien face au JT de l'ENTV, **Le quotidien d'Oran**, Algérie, le 13 Janvier 2007

يطرح الشباب على وسائل الإعلام في العالم أكبر رهان وذلك نظرًا لخصائصه النفسية التي تتميز بسرعة تقلب المزاج، والتغيير السريع في الذوق. وأيضا لعلاقته الودودة والمتطورة مع تكنولوجيات الاتصال، التي تمنحه ما لا تملكه وسائل الإعلام الكلاسيكية. لذا نلاحظ أن مقاربة القنوات التلفزيونية لموضوع الشباب قد تغيرت وفق الاعتبارين المذكورين. حيث لم تعد تتحدث عن الشباب في المطلق والمجرد، ولا تتعامل معه ككتلة اجتماعية وثقافية ومتجانسة.بل تمنحه الفرصة للحديث عن ذاته في مجالات مختلفة: انتقاله إلى مراحل التعليم المتقدمة، وبداية انخراطه في النشاط المهني، وبداية خوضه التجارب العاطفية والإعداد للانتقال إلى الحياة الزوجية، وتطور استهلاكه الثقافي والفني وأشكال قضاء «وقت فراغه»، وتطور لغته وأسلوبه في الاتصال، وعلاقته بالجيل الذي سبقه، وغيرها من المواضيع التي تشكل مادة ثرية لتحقيقات وربورتاجات أو برامج تلفزيونية.

إن نشرات الأخبار في التلفزيون الجزائري لا تهتم بالمجالات المذكورة التي يكتشف فيها الشباب ذاته، ويبني عبرها نفسه، ويكتسب خبراته في احتكاكه العفوي واليومي مع الآخر، أو يساهم في بناء مجتمع. وذلك لأن التلفزيون الجزائري انشغل ببناء الدولة الجزائرية وانصرف عن بناء المجتمع الجزائري. وعلى هذا الأساس لا يسعى التلفزيون إلى إعلام الجمهور عن حقائق مجتمعه ليكون له رأيًا حتى يتمكن من القيام بدوره كمواطن، وينتخب من يمثله عن دراية ووعي بواقعه وبحقيقة من يرغبون في تمثيله، ويحاسبهم على ما قاموا أو لم يقوموا به.

يبرهن التاريخ المعاصر على أن الفشل في بناء مجتمع يؤدي، بالضرورة، إلى الإخفاق في بناء دولة بالمفهوم المعاصر. فالدولة لا تبنى من خارج المجتمع. وانهيار مؤسسات بعض الدول الديمقراطية في أوروبا لم يؤد إلى تفكك مجتمعاتها، لأنها عملت على بنائها باستثمار كل طاقتها في إنتاج وتوزيع المواد الرمزية التي تقوي تماسكها. فبدون الاهتمام ببناء المجتمع يتعثر التلفزيون في مساهمته في بناء الدولة، حيث يتحول إلى لسان ناطق باسم جهاز يتصور أنه دولة، بعد أن حاد عن دوره كفضاء رمزي لتداول المعلومات ومناقشتها وإدارة الحوار لضمان شروط «التعايش المشترك» بين مختلف الشرائح الاجتماعية والقوى الاقتصادية والأطراف السياسية، والتيارات الثقافية والفكرية.

يولي الباحثون في مجال السمعي البصري أهمية كبرى للسياق الذي يتناول فيه الشباب الكلمة تلفزيونيًّا، فيؤولون دلالة المكان الذي يسجلون فيه أقوالهم المتلفزة: (مدرسة، جامعة، ملعب رياضي، شارع، حفل، أسرة، وغيرها)، والإطار الذي تُسجل فيه أقوالهم، ومدى ارتباطه بموضوع المادة التلفزيونية، وذلك لأنهم يعتقدون، عن صواب، أن السياق

يؤثر في قول الشباب المتلفز، ويحدد قيمته[1]. لكن لا يوجد أي أثر لأهمية هذا السياق في التلفزيون الجزائري، وذلك لأن الخطاب التلفزيوني يقوم بتحييده، سواء عن قصد أو بدونه، من أجل إعلاء صوت الخطاب الرسمي: خطاب المؤسسة. فالمكان يستغل كإحدى مكونات ديكور الخطاب المذكور فقط. وتتجلى هذه الحقيقة عبر الاستراتيجيات التالية:

1- يلجأ التلفزيون الجزائري إلى تجريد الشباب من الأحداث التي يقومون بها وذلك من خلال إخراجها من سياقها الطبيعي وإدغامها في سياق آخر يكون في الغالب رسميًّا. وبهذا يحرم التلفزيون الشباب من إسماع صوتهم وتقديم صورتهم الفعلية للمجتمع. فإذا كان الحدث يتلخص، على سبيل المثال وليس الحصر، في قيام الشباب بامتحان الثانوية العامة فإنه يتحول تلفزيونيًّا إلى تفقد وزير التربية الوطنية قاعات الامتحان واحتكاره الكلمة المتلفزة للحديث المستفيض عن التحضيرات الجيدة التي قامت بها وزارته لإجراء هذا الامتحان في ظروف حسنة. وبعدها يأتي صوت وصورة الشاب أو الشابة الممتحنة ليؤكدا ما يقوله الوزير، وسط مجموعة من الصور للشباب وهم يمتحنون في صمت. ففي هذه الحالة تغيب صورة الشباب كفاعلين لتتحول إلى مجرد متفاعلين مع الحدث الأساسي والمتمثل في قيام الوزير المذكور بزيارة إلى مراكز الامتحان! هذا إذا سجل التلفزيون صوتهم، وإن لم يسجل واكتفى بصورتهم فقط فإن هذه الصورة تصبح وثيقة إثبات الزيارة. للتأكيد على هذا الأمر يمكن الإشارة إلى الربروتاج الذي بث في نشرة الأخبار المتلفزة يوم 18/ 7/ 2011، والخاص بانطلاق عملية تسجيل الطلبة الجدد في جامعة باب الزوار بالجزائر العاصمة. فالربورتاج لم يمنح للطلبة المعنيين الحق في أخذ الكلمة حتى لتكرار الخطاب الرسمي، بل اكتفى بصورهم الصامتة، وانصرف للتأكيد على الظروف الجيدة للتسجيل الجامعي بإتاحة الكلمة لبعض المسؤولين في الجامعة لسرد الإحصائيات!

2- من النادر جدًّا أن يحل الشباب ضيفًا على نشرة الأخبار المتلفزة. وإن حل، مثلما كان الأمر في نشرة الأخبار ليوم 13/ 7/ 2011 التي استضافت فيه أول متفوق في امتحان الثانوية العامة، والذي حظي مع زملائه المتفوقين بتكريم من رئيس الجمهورية. لقد سلمه المذيع نص النشرة ليشاطره في تقديمها! فحتى عندما بادر الشباب المكرمون، في هذا الحفل، بتقديم هدية لرئيس الجمهورية، اتجهت كاميرا التلفزيون إلى الرئيس وركزت عليه طويلًا، ثم انتقلت إلى الهدية. ولم تلتفت للشباب إلَّا عندما أخذوا صورة جماعية مع الرئيس!

3- عالم الشباب في نشرة الأخبار في التلفزيون الجزائري عالم تجريدي. لا يقدم الشباب في حالتهم الطبيعية والملموسة ويمنح لهم الكلمة ليعبروا عن حياتهم اليومية بكل

(1) Maxime Drouet: op cité

تلقائية، وعن طموحاتهم، ويكشف عن أسلوبهم في الاندماج في الحياة المهنية، والعاطفية، والتعليمية. الكل يعلم أن نسبة كبرى من الشباب هم من مرتكبي الجرائم وضحاياها، ومن مستهلكي المخدرات ومروجيها، والمكافحون ضد انتشارها في المدارس والشوارع. لكن هذا الواقع المعقد الذي يعيشه الشباب يختصر في الأخبار التلفزيونية في جملة من الإحصائيات التي يعلن عنها بلاغ الأجهزة الأمنية التي لا تروم سوى التأكيد على سهر قوات الأمن وحرصها على أمن المواطن وممتلكاته.

4- لقد سبق وأن اشرنا إلى أن الشباب ليس كتلة اجتماعية واحدة متجانسة، وهذا ما يتجلى عبر ثقافاته الفرعية: لغته وطريقة حديثه، وموسيقاه، ولباسه، وأشكال تمضية وقت فراغه. هذه الثقافات الفرعية ظلت مغيبة في نشرات أخبار التلفزيون الجزائري. فإذا كان لا مندوحة من ظهور الشباب في هذه الأخبار فإنه يستعير لغة غير لغته التلقائية، وينفصل عن ثقافته الفرعية. هذه الحقيقة تقودنا للحديث عن أشكال التفاف الشباب الجزائري على عملية إقصائه إعلاميًّا.

التمثيل	متوسط العدد	%	فاعل	%	متفاعل	%	توضيحي	%
ممثل الدولة	17	%56	17	%56	0	%0	0	%0
أحزاب التحالف الرئاسي	1	%3,33	1	%3 ،33	0	%0	0	%0
بقية الأحزاب	1	%3,33	1	%3,33	0	%0	0	%0
الجمعيات المدنية	2	%6,66	2	%6,66	0	%0	0	%0
المستقلون	9	%30	0		6	%20	3	%10

الجدول رقم 2: تمثيل الفئات في نشرة أخبار التلفزيون الجزائري

التفاف الشباب على التهميش الإعلامي والثقافي

في البداية يجب التنبيه إلى أن هذا الالتفاف لم يأخذ طابعًا استراتيجيًّا واضحًا من قبل القوى الفاعلة في أوساط الشباب، بل تشكل بطريقة برغماتية، وتعزز بمرور الزمن.

أمام ضيق المنابر الثقافية والإعلامية التي تسمح للشباب بالتعبير عن ذاتهم وإبداعاتهم، وانطفاء وهج الأغاني الثورية والملتزمة، وجد قطاع واسع من الشباب ذاته، خاصة ذاك المنحدر من الطبقات الاجتماعية المسحوقة، في أغاني الرأي، التي انتشرت في مطلع الثمانينيات من القرن الماضي. لقد ظهر هذا النمط الغنائي في العشرينيات من القرن الماضي في المنطقة الغربية من الجزائر: (وهران وسيدي

بلعباس) ثم انتشر في باقي المناطق الجزائرية. وصدح بالمشاكل التي يتخبط فيها الشباب، مثل البطالة، والفقر، وأزمة السكن، والخيبة العاطفية، والكبت الجنسي، وتغنى بقيم الفحولة والرجولة، وبجل البحث عن المرأة/ الأنثى التي تقف أمام الرجل الند للند، وتبوح بما يختلج ذاتها بأسلوب فظ، ولغة تخترق الطابوهات الأخلاقية والاجتماعية.

وهذا الضرب من الغناء لا يحمل رسائل تمردية ضد النظام السياسي، لأنه ينمي ثقافة لوم الذات على المصير الشخصي، ويؤمن بأن الشقاء والمعاناة في العيش والحب هي من نصيب الفرد ونتيجة لقراراته ورأيه أو أنها قضاء وقدر. وبالتالي لا يُحمّل هذا النوع من الغناء أي طرف المسؤولية عن المعاناة المذكورة. لقد وصفت الباحثة ماري فيرول سويبس Marie Virolle-Souibes[1] هذا الضرب من الغناء بأنه وجودي، يخاطب العاطفة أولًا. ورأت أنه غير سياسي، ويكتفي بالتطرق لظروف الحياة الصعبة التي تثير لدى كل شخص بعضًا من حزنه وشجنه.

ورغم «البراءة» السياسية لهذا النوع من الغناء إلَّا أن المؤسسات الثقافية والإعلامية الرسمية سدت الأبواب في وجهه، نتيجة اختراقه الطابوهات الاجتماعية والأخلاقية ومخاطبته للغريزة. ولم يقف هذا المنع حاجزًا أمام انتشاره، بل بالعكس لقد زاد الإقبال عليه خاصة لدى الفئات الشعبية والوسطى. فغزا الأعراس والحفلات، وساهمت الشرائط الصوتية في انتشاره. وتغلغل في النسيج الثقافي للشباب الجزائري، خاصة بعد أن ازداد وهجه خارج الجزائر لهجرة بعض نجومه.

لم يسمح لأغاني «الرأي» ولوج المؤسسات الرسمية (الإذاعة، والتلفزيون تحديدًا) إلا بعد منتصف الثمانينيات؛ أي حينما أدرك أصحاب القرار في البلد أن شريحة واسعة من الشباب، خاصة أبناء الفئات الوسطى وبعض النخب المثقفة، التي صدمت بنمط المعيشة الذي جلبه الانفتاح الاقتصادي، اتجهت إلى المساجد لتنهل من الأدبيات السياسية الإسلامية: كتب حسن البناء، وشرائط الشيخ كشك المسموعة، والمناشير السياسية التحريضية.

أمام انقسام الشباب الجزائري إلى فئتين: فئة تابعة لشيوخ التيار الإسلامي، وفئة تابعة لشباب الرأي (يطلق في الجزائر اسم الشاب أو الشابة على مغني الرأي)، بدأت الصحف الجزائرية الناطقة بالفرنسية (المجاهد، والجزائر الأحداث، والثورة الإفريقية) تناقش موسيقى الرأي قصد إعطائها شرعية الظهور في المؤسسات الرسمية (الإذاعة والتلفزيون). وبالفعل اكتسب هذا الغناء شرعيته بعد أن رعته السلطات المحلية، ثم وزارة الثقافة لاحقًا، عبر المهرجانات المحلية. لكن اكتساب أغاني الرأي حق البث

(1) Marie Virolle-Souibes: Le Raï entre résistances et récupération, **Revue du monde musulman et de la Méditerranée**, Nº51, 1989. pp. 47-62.

في الوسائل السمعية- البصرية الرسمية لم ينفعها كثيرًا، لأن انخراطها في نظام السوق داخل الجزائر أو خارجها «هذبها» ودفعها نحو التماهي، أكثر، مع أنواع موسيقية أجنبية، مما أفقدها الكثير من أصالتها.

أمام احتواء السلطة السياسية لأغاني الرأي، وتسليعها، اتجه الشباب الجزائري، بعنفوان، نحو أغاني الراب Rap التي وصلته عن طريق القنوات التلفزيونية الغربية، خاصة الموسيقية منها، وبعض نسخ شرائط الفيديو المنتحلة. لقد انتشرت أغاني الراب في عقد التسعينيات من القرن الماضي، وهو العقد الذي شهد كثرة الاضطرابات الاجتماعية واستشراء العنف الدموي في الشارع الجزائري. ففي ظل هذا السياق شكلت هذه الأغاني ملاذًا للشباب وسلاحًا في الوقت ذاته: ملاذ لأنها تسمح للشباب بالتنفيس عن ذاته والحديث العلني، وبصوت مرفوع، عن بؤسه وآماله، وغضبه وجزعه. وسلاح لأنه سمح الشباب بالتنديد بالنظام السياسي ورموزه، وبالتيار الإسلامي المتطرف وأتباعه. وقد انتشرت فرق الراب في الجزائر بصورة مذهلة، حيث بلغ عددها 2200 فرقة، في غضون بضع سنوات فقط![1] وما يفسر هذا التضخم الكبير في عدد الفرق المذكورة ليس الفراغ السياسي والثقافي الذي يعيشه الشباب الجزائري فحسب، بل سهولة تشكيلها أيضًا، حيث إن الكثير من فرق الراب تكونت من الشباب الذين يزاولون دراستهم معًا، أو يقطنون الحي ذاته، بدليل أن بعضهم سمّى فرقته باسم الحي السكني الذي انطلقت منه. لقد استغلت هذه الفرق ما توفر لها من فضاءات للتدريب: استغلال أقبية العمارات، وتأجير قاعات، وتنظيم حفلات مصغرة دورية في مسكن الأعضاء والمشجعين والأصدقاء. واختفى ضمن هذه الحركية الكثير من الفرق وأعيد تشكيل بعضها، واختار بعضها الآخر الهجرة للاحتراف، وتوصل إلى التعاقد مع شركات موسيقية عالمية، مثل الفرقة المسماة «أنتيك» و«الحامة» (اسم حي سكني بالجزائر العاصمة).

لم تشذ فرق الراب في الجزائر عن تلك التي برزت في الدول الغربية. فقد ظهرت في الأحياء الفقيرة، وفي أوساط الشباب المهمش والمقصي. وأجابت، عبر سرعة انتشارها وتزايد شعبيتها في الجزائر، عن السؤالين اللذين طرحهما الباحث ماشادو بايس[2]، ونعيد صياغتهما بالشكل

(1) Rabah Mezouane Algérie : Le rap brise le silence, **Revue la pensée de midi**, consulté le 7/8/2011 in

http://www.lapenseedemidi.org/catalog/revues/revue4/rubrique/8_music-a3.pdf

(2) Machado Pais: Transitions et cultures de la jeunesse : «formes et manifestation», **Revue internationale des Sciences sociales**, N° 164 -2000, pp. 247 - 261

التالي: هل تشكل فرق الراب رمزًا لثقافة الغيتوهات أو ثقافة الشبكة؟ وهل إن الوعي هو الذي صاغ رسالة موسيقى الراب أم إن النشاط الموسيقي هو الذي أدى إلى إدراك الوعي؟

نعتقد أن النواة الأولى التي شكلت فرق الراب في الجزائر تملك خلفية ثقافية وسياسية، إذ استفاد جزء كبير من أفرادها من التعليم الجامعي. هذا ما يتجلى من خلال تحليل الخطاب الذي يروجونه، والذي يتضمن نوعًا من إدراك الوعي بالواقع المزري والتعبير عن مطالب اجتماعية. وقد تحول الراب إلى ظاهرة اجتماعية تتردد أغانيه في الحفلات، وفي الملاعب الرياضية، وفي الاعتصامات. وهكذا فرضت العديد من الفرق الموسيقية اسمها في عالم الغناء في الجزائر، مثل «دوبل كانون» (Double Canon) و (le Micro brise le silence) (MBS) (الميكروفون يخترق الصمت)، وفرقة (Antik)، والتي تدل في لسان الشباب الجزائري المتداول «إننا في نعمة»! و(Deep Voice) (صوت من الأعماق)، وغيرها. وبهذا لم يعد الراب «صرخة غضب الغتوهات»، بل عمّ المدن الجزائرية. فأمام رفض المؤسسات الإعلامية والثقافية الرسمية بث هذا النوع من الغناء نظرًا لتعبيره الفظّ عن الواقع، واحتواء بعض نصوصه على الشتم والقذف، ومعارضته الصريحة والعنيفة للنظام السياسي، وجدت فرق الراب طريق انتشارها وسط الشباب من خلال الحفلات والأعراس، والشرائط المسجلة، وموقع اليوتيوب والفيس بوك. وساعدتها في ذلك المواضيع التي تتطرق إليها، والتي تمس قطاعًا واسعًا من الجزائريين، ولغتها المحكية المقتبسة من حديث الناس اليومي ومعاناتهم. فيكفي أن نسجل في محرك غوغل «الراب الجزائري» حتى تزدحم نتائج البحث بمئات الشرائط الغنائية في شبكة اليوتيوب المرفقة بقائمة طويلة من التعليقات التي تخص مغنيي الراب أو فرقهم، أو تتعلق بما يعج به عالم الشباب من أفكار وآراء ومشاعر وقضايا وضغائن.

أمام انتشار هذا النوع من الغناء حاولت المحطات الإذاعية، خاصة المحطة الثالثة الناطقة باللغة الفرنسية، أن تنتقي بعض أغاني الراب «المهادنة»، والأكثر قربًا من المدونة اللسانية الرسمية لبثها. هذا بجانب استعانة عالم الإعلان بمقاطع موسيقى «الراب الجزائري» وألحانه. وبهذا فقد حاولت القنوات الإعلامية والثقافية الرسمية التعامل مع أغاني الراب بالأسلوب ذاته الذي استعملته مع أغاني الرأي من أجل احتوائها. لكن الفرق الوحيد بين أغاني الراب والرأي يكمن في تكاثر فرق الراب في الجزائر، وانتشارها السريع الذي حول غناءها إلى نمط ثقافي لدى الشباب، وأسلوب اتصال فأخرجه من خانة «ثقافة الشباب الفرعية». ففي ظل هذه الأرضية الثقافية والاجتماعية برز الالتفاف على التهميش الثقافي والإعلامي للشباب، والذي يتجلى عبر الآليات التالية:

1- قيام مجموعة من الشباب بتخريب المنظومة الإعلامية الرسمية من خلال الاشتغال

على نشرات أخبار التلفزيون الجزائري عبر عملية المونتاج (التركيب) ومزج الأصوات، فيتم تغيير محتوى هذه النشرات بجعلها تتطرق إلى المواضيع التي ظلت محرمة. وإعادة تركيب البرامج السياسية المتلفزة التي يشارك فيها ممثلو السلطة أو أحزاب التحالف الرئاسي، وتقولبهم بأقوال مضحكة حول مواضيع «تافهة». بالطبع إن الميدان الذي تجري فيه عملية «التخريب» هو شبكة الانترنت عبر الفيس بوك، واليوتيوب[1]. ونعتقد أن الغاية المبطنة لهذه المحاولة ليست التسلية وإضحاك مستخدمي الإنترنت، كما يبدو للبعض، بل تكمن في الدعوة الضمنية لعدم أخذ الأخبار الرسمية والبرامج السياسية التي يبثها التلفزيون الجزائري مأخذ جد. وعدم منح الثقة لما يقوله المتنفذون في السلطة.

يمكن الإشارة إلى أن الشباب الجزائري يحبّذ كثيرًا هذه المحاولة، حيث سبق له أن شاهد بعض أفلام «الكوبوي» Cow-boy الأميركية مدبلجة باللهجة المحلية التي «تحكي» عن قضايا محلية، في مطلع الثمانينيات من القرن الماضي.

2- لجوء بعض الشباب إلى تجريد الأخبار التي تنشرها وسائل الإعلام الجزائرية الرسمية من كل مصداقية. ففي هذا الإطار يجمع الشباب الجزائري شرائط الفيديو التي غطت بها القنوات التلفزيونية الأجنبية (خاصة الفرنسية والجزيرة) للأحداث التي عاشتها الجزائر (مظاهرات، إضراب، اعتصام...) ويعيد تركيبها وبثها عبر شبكة الفيس بوك واليوتيوب. إن قيمة هذا العمل تكمن في تقديم صور وحقائق وشهادات عن الأحداث التي عاشتها الجزائر وتجاهلتها وسائل الإعلام الرسمية، خاصة التلفزيون، أو حرفتها أو زورتها.

3- إعادة عرض بعض شرائط الأخبار التي بثها التلفزيون الجزائري على شبكة اليوتيوب، وفتح باب التعليقات والتعقيبات عنها، والتي تلتقي كلها في التأكيد على تزوير الأحداث والوقائع، والتضليل الإعلامي، وفي التعبير عن سخط الشباب على ما يبثه التلفزيون الجزائري. وتتعدى التعقيبات، في الكثير من الأحيان، مضمون النشرة الإخبارية لتتعرض بالنقد للنظام السياسي[2].

---

(1) انظر على سبيل المثال:

Débat sur les produits laitiers, consulté le 12/7/2011 in

http://www.youtube.com/watch?v=BCWUxLhoagQ&feature=related

(2) انظر على سبيل المثال:

Le honteux JT de Canal Algérie /ENTV sur les émeutes, consulté le 11/9/2011 in

http://www.youtube.com/watch?v=cJfC2m2NQSE

- Entv, Canal Algérie : mensonges et manipulations, consulté le 11/9/2011 in

http://www.youtube.com/watch?v=cgBVs5Chj3U&NR=1

لم يكتف الشباب الجزائري في التفافه على التهميش الذي لقيه من وسائل الإعلام الرسمية بالآليات المذكورة، بل سعى إلى تملك Appropriation أدوات التعبير عن الأحداث في الجزائر، وعن أوضاعه ولتقديم صورة عن ذاته تختلف كليًّا عن تمثُلات السلطة الحاكمة للشباب. أي صورته كما هو في حياته اليومية. فضمن هذا المسعى يمكن أن نذكر،على سبيل المثال، إنشاء صفحة «مراسلو الجزائر الخواص» في شبكة الفيس بوك التي افتتحها أربعة طلبة في يوليو/تموز 2010، واستطاعت في وقت قصير جدًّا أن تجمع 37 ألف مشترك، وتسجل 41 مليون زيارة! وتوسع شبكة مراسليها من المتطوعين والتي تضم آلاف الشباب المنتشرين في كل مناطق الجزائر، والذين يتكفلون بإرسال شرائط الفيديو، والصور، والأخبار المكتوبة. والتي تغطي، بشكل آني، كل الأحداث التي تجري في التراب الوطني.

وعن سبب إصدار هذه الصفحة يقول أحد مؤسسيها : (أعتقد أن الذي دفع الشباب إلى الاستغناء عن وسائل الإعلام الكلاسيكية والبحث عن بدائل لها كالفيسبوك هو تعفن المشهد الإعلامي الجزائري، ووقوعه في مستنقعات تصفية الحسابات، وابتعاده عن مهمته الرئيسة المتمثلة في تبليغ المعلومة بموضوعية وشفافية في إطار ميثاق الشرف الصحفي، هذا فضلًا عن الغلق الإعلامي التي تعيشه الجزائر منذ سنوات، بل عقود)[1]. وقد تحصن مؤسسو هذه الصفحة ضد الأخبار الكاذبة من خلال التوجه إلى المشتركين في الصفحة والمراسلين للتأكد من صحة الأخبار التي تصلهم قبل نشرها.

وتأتي هذه التجربة ضمن العديد من المبادرات الفردية التي يقوم بها بعض الشباب لاستثمار طاقة شبكة الإنترنت التواصلية والتعبيرية من أجل نقل وجهة نظرهم حول الأحداث التي تعيشها الجزائر، أو للتعبير عن مشاكل الشباب، من خلال تبادل المعلومات والصور، والشرائط عبر البريد الإلكتروني، والفيس بوك واليوتيوب[2].

إن التحليل العلمي لهذه الآليات المستخدمة للالتفاف على تهميش الشباب إعلاميًّا تفضي إلى الاقتناع بأنها لم تتصلب بعد في الممارسة، وذلك لجملة من الأسباب، نذكر منها سببين أساسيين :

---

(1) Nicolas Burnens: Les Envoyés Spéciaux, la voix de la jeunesse algérienne, consulté le 20 juin 2011 in **http://www.ir7al.info/?p=1203**

(2) انظر على سبيل المثال:

- Les émettes en Algérie: Alger, Annaba Msila؛ Consulté le 12/7/2011 in **http://www.youtube.com/watch?v=-fJcSkeRWX0**

- CAMRA grève nationale des médecins résidents algériens CHU de SETIF 28 -03-2011.flv, consulté le 12/7/2011 in **http://www.youtube.com/watch?v=G7BGI8-KuKY**

1- إن بقاء هذه الآليات واستمرارها وصمودها يتوقف على إرادة الفرد أو مجموعات صغيرة من الأشخاص الذين يقومون بعمل تطوعي قد يتعرض للتعثر، والتوقف لبعض الوقت أو نهائيًا، وإعادة الانطلاق على أسس جديدة. كما هو شأن إذاعة «حشيشة» (Radio Hachicha)[1] و«إذاعة الجزائر»، التي كانت تقدم برامج ساخرة على شبكة اليوتيوب تحاكي فيها برامج الإذاعة الوطنية لكن بمحتوى مغاير، مثل البرامج الذي يشارك فيها الشباب عبر الهاتف، فيطرحون مشاكلهم، بمفرداتهم اللغوية. ويشتكون من ضنك العيش، والبطالة. بل إن بعضهم تدخل لطلب مساعدة من متابعي الإذاعة ليهاجر إلى أوروبا بشكل غير شرعي![2] لقد توقفت هذه المحطة عن البث لتحل محلها إذاعة سميت «إذاعة صوت المواطن»، التي شرعت في البث في ديسمبر/ كانون الأول 2010؛ وهي إذاعة جمعوية. فهذه المحاولات الفردية لامتلاك حق الكلام والحق في الإعلام، والتي تعبد الطريق لصحافة المواطن Citizen Journalism تفتقد، رغم تعددها في شبكة الإنترنت وتنوعها، التجربة التنظيمية والرؤية اللتين تملكهما المحطات الإذاعية والقنوات التلفزيونية التابعة للتنظيمات السياسية المعارضة والتي بدأت بالبث عبر شبكة الإنترنت، وعبر القمر الصناعي[3].

2- إن الاستخدام الديناميكي لهذه الآليات لا يجب أن ينسينا أن شبكة الإنترنت في الجزائر ظلت أداة نخبوية في يد شريحة من الشباب مقارنة ببعض الدول العربية، خاصة تلك المجاورة للجزائر، حيث تؤكد إحصائيات شهر يونيو/ حزيران 2010 أن معدل تغلغل الإنترنت في المجتمع الجزائري مقارنة بعدد سكان الجزائر لا يتعدى نسبة 4.13% مقارنة بنسبة 9.33% في تونس، و3.41% بالنسبة للمملكة المغربية[4]. وهذا خلافا

(1) ويقصد بها العشب. لقد جرت على ألسنة الشباب الجزائري عبارة: «حشيشة طالبة معيشة». ويقصد بها الشخص المهادن والمستسلم، وحتى غير المبالي والذي لا يهمه سوى قوت يومه أو معاشه. لقد أنشأ شاب جزائري يقيم في فرنسا هذه الإذاعة، وسبق له إنشاء مدونة بهذا المسمى.

(2) انظر على سبيل المثال:

DZ Radio - Itha3a (1), Consulté le 24/7/2011 in **http://www.youtube.com/watch?v=mzNIKxxUkkk**

(3) يمكن أن نذكر في هذا الخصوص موقع قناة رشاد التلفزيونية التي تبث على شبكة الإنترنت على العنوان التالي:

http://www.rachad.tv/ وقد أضيف لها قناة فضائية بالمسمى ذاته بدأ بثها التجريبي يوم 11 يونيو/ حزيران 2011 على القمر الصناعي نيل سات.

(4) Internet world stats, Usage and population statistic, consulté le 14/9/2011 in **http://www.internetworldstats.com/africa.htm.**

لشبكة الهاتف النقال التي بلغت نسبة تغلغلها في الجزائر 93%[1]، بفضل انفتاح القطاع على الاستثمار الأجنبي، واشتراك شركتين خاصتين في تطويرها بجانب شركة حكومية.

يمكن أن نربط تواضع معدل تغلغل الإنترنت في الجزائر بالبطء التكنولوجي الذي واجهته. فرغم أن الجزائر شرعت في استعمال البث ذي النطاق الواسع في 2003 إلّا أن نسبة الاشتراك المنزلي فيه لم تتعدّ 12% في السنة 2007، حسب ما أكده تقرير الديوان الوطني للإحصاء. لكن يبدو هذا الربط، في تقديرنا، مجحفًا في تفسير سر بطء اتساع الرقعة الاجتماعية لاستخدام الإنترنت في الجزائر، الذي انطلق في 1998. لذا لابد من طرحه في إطار أوسع يتعلق بالسياق الثقافي والاجتماعي في الجزائر. فاستخدام الإنترنت يتطلب قدرًا من المعرفة التقنية ومستوى من التعليم. فالإحصائيات تؤكد أن غالبية مستخدمي الإنترنت في الجزائر هم ذوو التعليم الجامعي، حيث تقدر نسبتهم بـ 3.55% مقابل 25% من ذوي التعليم الثانوي، و4.8 % من ذوي التعليم المتوسط، و5.1% من محدودي التعليم. وأن الغالبية من مستخدمي الإنترنت هم من الكوادر الإدارية والتقنية في المؤسسات الخاصة والعامة، وتقدر نسبتهم بـ37%، وتليهم فئة طلاب الجامعة بنسبة 25%[2]. فعدم تراجع الأمية في المجتمع يشكل التحدي الأكبر لانتشار استخدام الإنترنت، لأن التحدي الاقتصادي قد تمَّ تجاوزه. فأبناء الفئات ذات الدخل المحدود والذين لا يستطيعون الاشتراك في شبكة يتجهون إلى مقاهي الإنترنت، التي بلغ عددها في الجزائر 2000 مقهى[3].

كما أن المخاض العسير والدامي الذي عاشته الجزائر منذ التسعينيات من القرن الماضي سمح لكل شخص أن يندد أمام الملأ بما يشاء. فالنقد والتنديد، وحتى السخط على الوضع الذي آلت إليه البلاد، لم يعد مقتصرًا على المعارضة السياسية، بل أصبح من نصيب السلطة الحاكمة وممثليها. لذا لم تستثمر الشبكات الاجتماعية في الإنترنت (المدونات، والفيس بوك، اليوتيوب، وتويتر...) بالجزائر في ممارسة

(1) Le ministre des PTIC, M. Moussa Benhamadi, auditionné par Bouteflika: Améliorer la qualité de service en priorité; **le quotidien liberté**; Alg rie, du 25/8/2011¦

(2) Hamida B: Utilisation des réseaux sociaux dans le monde arabe : L'Algérie à la 6e place avec 2 millions d'utilisateurs de Facebook, le quotidien **El moudjahid,** Alg rie, du 22 ao t 2011.¦

(3) Institut de prospective économique du monde méditerranéen (Ipimed): La confiance dans la société numérique méditerranéenne Vers un espace .med, **Palimpsestes**, France, n°7 juillet 2011.

النضال السياسي بالكثافة التي استخدمت بها في تونس ومصر، رغم أن قبضة السلطة الجزائرية على هذه الشبكات ونشطائها كادت تكون معدومة مقارنة بالرقابة القاسية التي تمارس في العديد من الدول العربية.

إن البطء المسجل في انتشار شبكة الإنترنت في الجزائر لا يمنعنا من القول بأن التوجه لاستخدام الفيس بوك من قبل الشباب الجزائري قد زاد بنسبة 21% عما كان عليه في السنة الماضية، حيث قدرت هذه الزيادة ب350 ألف مشترك جديد كل شهر منذ انطلاق الأحداث التي أدت إلى تنحية الرئيس زين العابدين بن علي من على رأس السلطة في تونس[1]. ليصبح نصف مستخدمي شبكة الإنترنت في الجزائر مشتركين في الفيس بوك[2]، وهذا خير دليل على تأثير «الربيع العربي» على استخدام الشباب الجزائري للشبكات الاجتماعية.

إذا كان الهاجس السياسي أقل ثقلًا في الشبكات الاجتماعية الافتراضية في الجزائر مقارنة ببعض الدول العربية، فإن الشباب الجزائري يسعى لاستثمار هذه الشبكات لتحسين وجوده الاجتماعي والثقافي، ولتجاوز «تكلس» المؤسسات الإدارية والثقافية. فالمنتديات الإلكترونية الطلابية، على سبيل المثال، لم تكتف بالتنديد بالقصور في إدارة الجامعة وظروف التعليم التي تزداد صعوبة، بل تحولت إلى أداة نشيطة لتوزيع الأخبار وتعميمها، بدل الإدارة الرسمية، وتقاسم المواد العلمية والخبرات الثقافية. كما أن العديد من المدونات الإلكترونية الجزائرية تحولت إلى منابر أدبية لتعويض النقص الكبير في مجال النشر، ولرفع الوصاية السياسية والأدبية على الإنتاج الأدبي، خاصة الشبابي منه[3].

حقيقة إن هذه الشبكات الاجتماعية تبعث النقاش حول دور الإنترنت في «تشذر» الشباب و «توحيدهم» في آن واحد. وتكشف أن آليات الالتفاف على تهميش الشباب إعلاميًّا لا تتم بمنأى عن عملية تفكيك الروابط الاجتماعية للشباب وإعادة تشكيلها.

أخيرًا، يمكن القول إن الارتفاع الملحوظ في عدد مستخدمي الشبكات الاجتماعية ليس العامل الوحيد الذي يفتح الأفق لأشكال أخرى مبتكرة للالتفاف على التهميش الإعلامي للشباب الجزائري، والبحث عن أساليب أخرى للاندماج الاجتماعي والثقافي في المجتمع الجزائري.

(1) Hamida B. op. cite.

(2) Institut de prospective économique du monde méditerranéen (Ipimed): op cité.

(3) للاطلاع أكثر على هذا الموضوع انظر: نصر الدين لعياضي، في البحث عن العلاقة بين المدونات الإلكترونية والصحافة، **مجلة ثقافات**، تصدرها كلية الآداب، جامعة البحرين العدد 24، 2011 ص (133-166).

إن العامل الأساسي الذي يمكن أن يقوم بدور كبير في تعزيز مساعي الشباب للالتفاف على التهميش الإعلامي لا يكمن في الاستمرار في إغلاق الخطاب الإعلامي الرسمي على ذاته، والإصرار على عدم انفتاح المؤسسات الإعلامية الرسمية على الشباب وهمومه وآماله، فقط، بل يمتد إلى «إصرار» هذه المؤسسات على تجاهل وسائط الإعلام الجديدة، والوقوف ضد أي عملية تجسير بين الإعلام الكلاسيكي والميديا الجديد والتي أصبحت القاعدة الأساسية التي تسمح للمؤسسات الإعلامية بإعادة تشكيل علاقاتها مع جمهورها وتشبيبه.